وجودية من الداخل

تأليف : ا.ل. آلن

عرض وتحليل : مجاهد عبد المنعم مجاهد

لعل أول ما يروعنا في هذا الكتاب (*) أن صاحبه الدكتور « آلن » يعيب على الدراسات التي كتبت في انجلترا عن الوجودية أنها لم تدرس الوجودية دراسة حقيقية مخلصة ، ولم تعمد الى مصادرها الحقيقية ، فكانت النتيجة أن هذه الدراسات صدرت وهي تحمل أحكاماً تعسفية ، وكان أن وضعت هذه الفلسفة موضع التساؤل ، وشك في قيمتها كفلسفة إنسانية .

ويذكر المؤلف في تصوير الكتاب أنه لا بد لنا أن نبدأ دراستنا بنوع من التعاطف Cympathy لكي نستطيع أن نتبين الوجه الحقيقي لهذه الفلسفة ... وعملية التعاطف هذه في الدراسة التي يذكرها الدكتور « آلن » مهمة جداً ، إذ لا بد لنا أن نقبل على موضوع بحثنا بنوع من الحب والألفة والمودة ، وأن يكون بيننا وبين هذا الموضوع نوع من الاتصال المباشر . وقد يظن بادىء ذي بدء أن هذا الحب وهذا التعاطف كفيلان بأن يمنحانا حكماً مسبقاً من الموافقة على الموضوع قيد البحث ، ولكن لعل العكس هو الصحيح ، إذ أن هذا الحب وهذا النفاذ الى الموضوع بهذه العاطفة المشاركة ، سيكشفان لي ما إذا كان هذا الموضوع جديراً بأن يحب او بأن يلفظ ، تماماً مثل أن احب فتاة . فلا بد أن أتعاطف معها وجدانياً إن كنت أريد ان أعرفها حق المعرفة ، وسيتبين لي ان كانت جديرة بهذا الحب أم لا . بدلا من أن أبعث وراءها المخبرين والرقباء ، فيحكموا على وجودها من الخارج ، بدلا من النفاذ اليه بضرب من التعاطف ... ولعل هذا الأمر هو ما يعيب معظم الباحثين في شرقنا العربي ، اذ أنه يظن ان الدراسة الحقة هي مجرد قراءة ضخمة لكتب كتبت حول الموضوع المبحوث ، فيقطعه بحثاً ، ولكنه — للأسف — بحث من الخارج ، مفتقر الى الضرب من المشاركة العاطفية .

يضاف الى هذه الميزة عند الدكتور « آلن » ميزة أخرى ، فمن خلال الشذرات التي ضمنها كتابه ، يتبين لنا أنه رجع الى الكتب الأصلية للفلاسفة الوجوديين أنفسهم ، ثم هو لم يكتف بهذا ، وإنما عمد ايضاً الى ضروب من الكتب عديدة تناولت الوجودية من وجهات نظر مختلفة ، لكي يستطيع أن يدخل هذه الفلسفة المحك ، متبيناً جدواها من عدمه .

ولعل ما جذب الدكتور آلن الى دراسة الوجودية هو موضوع الحرية ... أقول لعل ... وهو يؤطر قولة شلنج في الصفحة الأولى من كتابه : « إن بداية الفلسفة ونهايتها إنما هي الحرية . »

فاذا أضفنا الى الميزتين السابقتين ميزة ثالثة من انه قد خص كبار الوجوديين كلا منهم بمقالة ، وجعل مدار هذه المقالة لا فلسفة الفيلسوف بأكملها ، وإنما تناول النقطة الأساسية في تفكيره ، تبيناً مدى جدية المؤلف ومنهجيته وتعاطفه الحقيقي مع موضوعه الذي كشفه بركيزة كل فيلسوف .

نضيف الى هذا أنه لا يبدأ تعريف الوجودية كما هو الشائع في معظم الكتب التي كتبت عنها بأن يفرق بين الوجود والماهية داخلا في تعقيدات اصطلاحية ، ولكنه يلجأ إلى تعريف بسيط واضح سوف نذكره بعد قليل .

(*) الكتاب الذي نتناوله هنا «وجودية من الداخل» Exitentialism 7 From Within للدكتور «آلن» ، دكتوراه في الفلسفة ، يكاد يكون عرضاً محايداً للفلسفة الوجودية ، وقد طبع الكتاب عام ١٩٥٣ في لندن Routledge E Legan Paul .

وقد جعل المؤلف كتابه هكذا :

١ ــ مقدمــة : (وقددرس فيها مقدمة للوجودية وعرض لفلسفة كير كجورد)
٢ ــ مقاومة الموت : (تناول فيها فلسفة مارتن هيدجر)
٣ ــ الإنسان وحريته : (عرض فيها لمفهوم سارتر في الحرية)
٤ ــ العقل والتاريخ والايمان : (بين فيها آراء كارل ياسبرز)
٥ ــ من السر الى الاخلاص : (خص بها فلسفة جابريل مارسل)

ولسوف نتناول كل فصل من هذه الفصول عارضين لوجهة نظر المؤلف .

مقدمة

لعله من الأهمية بمكان ان نقرر بادئ ذي بدء ان الوجودية ليست فلسفة بالمعنى التقليدي لهذه الكلمة ، فكير كجورد كان يرعبه ان يعد ضمن الفلاسفة ، ولقد خشي اليوم الذي توضع فيه كتبه ضمن الكتب الدراسية ، ولقد ذكر كارل ياسبرز ان الحقيقة لا يمكن ان تكون مذهباً System والمقصود بالمذهب مجموعة من الأحكام والقضايا الجاهزة يبدعها ذهن تجريدي .

ويعمد الوجوديون الى التعبير الحي عن فلسفتهم ، او لنقل عن نزعتهم ، فسارتر مثلا يلجأ الى التعبير الأدبي ــ الى جانب كتبه الفلسفية والسيكولوجية ــ في الرواية والقصة والمسرحية ، والسبب في هذا ان الوجوديين يهتمون بـ : « كيف » هي الحقيقة ، لا « ما » هي الحقيقة فحسب ... ان الشكل وطريقة العرض ، والاطار ، لابد ان تؤثر في المضمون . بمعنى آخر ان الحقيقة الحسية Concret لا يمكن ان يعبر عنها باللغة الموافقة للحقائق التجريدية .

وربما نستطيع ان نعرف الوجودية كتعريف بدئي بأن «الوجودية هي محاولة للتفلسف من وجهة نظر الممثل بدلا من وجهة نظر المتفرج كما هو المعتاد » ..(١) اي انها محاولة للتفلسف من وجهة نظر ذلك الشخص الذي يعيش الحياة نفسها ، بكل ما فيها من قسوة ، لا ذلك المتعالي الذي يرقب الحياة من بعيد بمناظير مثالية تفضي الى مذاهب تجريدية .

ويختلف الباحثون في رد هذه الوجودية الى اصلها ، فبعضهم يردها الى القديس اوغسطين ، فاننا نجد في «اعترافاته» مواجهة الفرد مع مصيره المميت والجزع والقلق واليأس ، تلك المفاهيم التي اشاعها الوجوديون اليوم ... وبعضهم يردها الى سقراط لأنه قال وهو يشرب كأس السم : «انا لا اعرف ما يحدث وراء هذا العالم ، ولكني اتقدم بالشجاعة والأمل » ولقد واجه الموت وهو يرحب به على انه خاتمة لكل ما رغب فيه وما جاهر به ... وبعضهم يردها الى كيركجورد ــ وهو ما سنأخذ به وما سنركز عليه ــ ولكن قبل ان نفعل هذا علينا ان نذكر ثلاثة جديرين بالذكر :

اولا : شلنج (١٧٧٥–١٨٥٤) الذي نجد ان كيركجورد يأخذ منه فكرة الاختيار ، ولقد ذكر شلنج «ان وجود الانسان اساساً هو فعله الخاص ، وكانت الحرية عنده مبدأ خلاقاً Creative ... وثانياً : كانت Kant (١٧٢٤–١٨٠٤) الذي نجد عنده تأكيداً لقيمة الذات في المعرفة ، قائلا اننا نحن الذين نخلع المعنى لما هو معطى لنا في الحساسية ... وثالثاً : مين دي بيران (١٧٦٦ – ١٨٢٤) ولقد ضمه مونييه صاحب الفلسفة الشخصانية Personalism الى شجرة الوجودية (٢) ، وذلك لتأكيده على قيمة «الفعل» .

* * *

قلت اننا سنأخذ بوجهة النظر القائلة بان كير كجورد (١٨١٣–١٨٥٥) هو النبع الأساسي الذي تتدفق منه الوجودية ، وذلك لما اعطاه من تأثير لهذه الحركة المعاصرة .. لقد ثار كيركجورد على فلسفة هيجل المثالية ، فلقد شيد هيجل صرحاً ضخماً للفلسفة وجعل لكل شيء مكانه داخل هذا الصرح ، وان كل شيء في الوجود قد انتظم ، بل ان هيجل نفسه ليعلن انه نهاية الفلسفة لأن الفلسفة قد تكاملت بابداعه لمذهبه .. ثار كير كجورد على مذهب هيجل ، فلقد تصور هيجل نفسه جالساً على مقعد في مسرح العالم وهو يراقب مسرحية التاريخ وينقدها . غبي ! الم يدرك انه ليس هناك الا مقعد واحد وانه محجوز لله ، بينما هو ــ هيجل ــ على المسرح مع بقية الناس مطالب بأن يلعب هذا الدور (في كتابه Unscientific Postscript) بمعنى آخر ، ان حقيقة الموقف يمكن القبض عليها عندما ينظر اليها من الداخل من قبل اولئك الذين يعيشون خلالها ، فالحقيقة اذن ذاتية ، وعلى الانسان ان يكون مخلصاً كرجل لا كمفكر ان الحقيقة تقتضي الالتزام ، وهذا النمط من التفكير الشخصي المدعم بالالتزام يسميه كير كجورد بالتفكير الوجودي existential ، واللفظ يرجع الى التمييز المدرسي بين الماهية essence والوجود existence ، «الماهية هي كينونة الشيء والوجود هو الفعل الذي يتكون به الشيء » (الجياتي زيبورا Olgiati Zybura في كتابه : مفتاح لدراسة القديس توماس) فالماهية هي مجموعة الخصائص المميزة للشيء ، ويميزه عن غيره ، ولكنها لا تحمل اي ضمان على وجود الشيء بالفعل .. فالعنقاء يمكن ان تكون لها صفات تحددها ولكن هذه الصفات لا تدل على وجودها ، ومن ثم فالتحدث بألفاظ الوجود يدخل الأنسان العالم الحقيقي « لان نفكر وجودياً هو ان نصل الى ارتباط بموقف انساني على انه موقف نحن متضمنون فيه فعلا . »

والشخص الوجودي يبحث عن حل لمشاكله ، وهذا الحل يجعله قادراً على ان يحيا خلال اللحظة الحالية القاسية ويتقبل المسئولية من اجل قراراتها ، انه يجب ان يتدبر نفسه هنا والآن ، وهذه ركيزة ــ وان كانت غير علمية او حتى

(١) يصف جوليان بندا Julien Benda الوجودية كثورة للحياة ضد الفكر « تراث الوجودية » . وبالنسبة لإمانويل مونييه Emmanuel Mounier فهي « رد فعل لفلسفة الإنسان ضد تطرفات الأفكار وفلسفة الأشياء » والحكم الأول هو حكم ناقد عدو ؛ والآخر حكم صديق.

(٢) نجد رسما لهذه الشجرة في كتاب مونييه Introduction aux Existentialismes ص ١١ .

سيكولوجية الا انها – اخلاقية .

ولقد جعل كير كجورد فرديته ذات طابع ديني ، فهو يريد ان يكون كل فرد حاضراً مع الله في علاقة ، ولقد غفل عن ان المرء في مقابلته مع الله سيتقابل مع آخرين ايضاً يقابلون الله ، فبقيت فلسفته فردية للغاية ، ولم يتبين ان الفرد يصل الى ذاته فحسب خلال مجتمع فيه اعطاء وتقبل متبادل .

ومن اكثر الأشياء مأساوية في حياة كير كجورد انه وهو الذي قدس الالتزام لم يكن قادراً على ان يلزم نفسه .. فلقد كان يبارك الزواج ، الا انه اعتبر نفسه الفرد الاستثنائي وقطع صلته بخطيبته ، وظن ان الحياة السياسية هي مجال النفوذ والسيطرة لا مجال المشاركة الفعالة من جانب المواطن المسيحي ، وهذه النقطة بحثها سارتر وافضت به الى ان الفرد ملزم بالعمل في المجتمع .

ومما يعيب فلسفة كير كجورد انه هاجم العلم « لا يمكن تصديق ان انساناً يعتبر نفسه لا نهائياً كروح يمكن ان يفكر في اختيار العلم الطبيعي (مع المادية التجريبية) عملا لحياته وغرضاً لها » (اليوميات Journals) فالعلم في نظره لا قيمة له ولا اهمية .

واذا كنا قد عرضنا الآن لفلسفة كير كجورد ، فعلينا ان نبين الوضع التاريخي للفلسفة الوجودية ، فانه ليطلق عليها انها «فلسفة البحران» Philosophy of Crisis ومن الخطأ الشنيع ان تعتبر الوجودية فلسفة مطبوعة بطابع الحرب ، وانها كابوس اناس مهزومين وانهم سيصدمون اذا ما استيقظوا في يوم اسعد ، اذ ان الانسان في نظر الوجودية يوجد ككائن في موقف ، وان موقفه دائماً شيء اكثر ، مجموعة ظروفه ، وانه هو نفسه عامل مهم في موقفه ، حتى انه في النهاية لا يحدده موقفه ، ولكنه يحدد هذا الموقف . قد تكتب علينا الحرب من قبل الغرب بسبب ازمة قناة السويس ، ولكننا نحن الذين سنقرر مصير هذه الحرب ، بان نناهضها او ان نستسلم لها ، فان نحن ناهضناها كانت هذه بداية طور جديد في تاريخنا الوجودي .

ولقد اعتمدت الوجودية في دراستها على المنهج الفينومونولوجي Phenomenology ، وهو منهج ابتدعه ادموند هوسرل E. Huserl الألماني المتوفي عام ١٩٣٨ ، وخلاصة المنهج انني لا يمكن ان اعرف العالم في ذاته ، وانا انا اضع العالم بين قوسين واتوقف عن اصدار حكم عليه ، ولكني لا اقف هنا ، وانما انتقل خطوة اخرى من انني احكم عليه خلال علاقتي به .. واذ بي اكتشف هذه القصدية Intentionality من ان ذاتي تحيلني الى موضوع خارجي ، وان الموضوع يرتد الى ذاتي .. وانا انما علي ان اقوم بوصف من خلال الشعور لعملية الإحالة هذه ، فالمنهج الفينومونولوجي اذن منهج وصفي Descriptive من خلال ظاهرات الشعور .

مقاومة الموت

لعله من الضروري ان نقول ان فلسفة مارتن هيدجر M.Heidegger (ولد عام ١٨٨٩) تعد من اعقد الفلسفات ، وذلك للمصطلحات الجديدة التي يلجأ اليها للتعبير عن فلسفته .. ولقد ادرك الدكتور « الن » صعوبة هذه الفلسفة وذكر هذا .. وانني ساحاول ما وسعني الأمر ان ابسط فلسفة هيدجر ، وسأعرض بعض نقاط فلسفته بطريقتي لا بطريقة المؤلف لكي تتضح بعض الجوانب التي غمضت في شرحه .

ليس هناك من شك في ان هيدجر قد تتلمذ على يدي هوسرل ، ولئن كان احد الذين ينكرون وجود الله الا انه مكترث به .. والمشكلة التي يعنى بها انه يبحث الوجود الكوني Being لا الوجود الانساني existence ، وهو يرفض ان ينضم في اطار مع ياسبرز .

ولقد اهتم هيدجر بمشكلة خاصة في مقاله « ما هي الميتافيزيقا ؟ » الا وهي مشكلة « العدم » Nathigness ، وقد نظن ان هذه المشكلة مشكلة زائفة نشأت من اللغة ، فقد نقول : انه لم يأت ، هذا ليس حلوا ، انهم لا يحبونني ، نظن ان « عدما » لابد وان يوجد . ولكن هيدجر يرفض هذا اذ انه يسبق العدم على عملية السلب ، والعدم عنده ليس شيئاً موجوداً والا وقعنا في التناقض بين وجوده وبين طبيعته ، وانما هو عملية process . هناك تجربة فعلية للعدم وهي لا تنفصل عن الوجود وترتبط به والتجربة التي تثير العدم هي القلق dread (المصطلح الفرنسي angoisse وفي اللغة الانجليزية احياناً تترجم بـ angnish) وهذا القلق ليس هو الخوف ، لأن الخوف متعلق بانتماءات جزئية : انا اخاف ان افقد ساعتي ، اخاف الا الحق القطار ، اخاف ان افقد سمعتي ، ولكن القلق لا يرتد الى موضوع يمكن ان يرتد الى تهديد threat بعينه ، والقلق ليس في مكان ما معين ، ولكنه في كل مكان ، وهذا القلق يرجع الى كوننا وجدنا في العالم دون ما ارادتنا .

وقد يعترض معترض بان القلق الذي يثير العدم شيء شاذ وانه مرضي وانه من الخطأ ان نستدل منه على شيء .. ولكن هذا يدل على ان لدينا علما بامكانية السقوط الى العدم .. وهذه المعرفة هي التي تعطي له طبيعته الحادة « العدم هو ما يجعلنا نكتشف ما هو كائن What is على انه ممكن لوجودنا الانساني » وهذا يؤدي الى انه ليس هناك علم بالوجود الكوني Being وانما هناك وجوداما ان نستوعبه وجودياً او لا نستوعبه على الاطلاق ، اننا ندركه كدهشة ضد الامكانية التامة للعدم . وقيمة مشكلة العدم ، هي انها تثير الدهشة التي هي النظرة الأساسية والأصلية للفلسفة ، وان السؤال : لماذا انا هنا على الاطلاق ؟ لهو سؤال اصيل كتعبير عن العظمة ، ويؤدي الى ان الحياة ثقة ، وانني – كما عبر ياسبرز – معطى لنفسي . فاهمية العدم انه يضع وجودي موضع التساؤل وهذا سيضع كل امكانياتي ومشاريعي موضع التساؤل .

ويذكر هيدجر ان « كل كائن الى المدى الذي هو فيه كائن مكون من العدم » ولكن ليس معنى هذا ان هناك عدماً مسبق الوجود Pre-existent تصنع منه الأشياء .. ان العدم هو الذي يشعرني بان وجودي ينزلق الى هوة ما لها قرار ، وان علي ان اسيطر على وجودي ..

وان الانسان ليدرك انه جزء من الوجود ، ومن ثم كان الاستيعاب للوجود الكوني جزءاً تكاملياً لوجوده .. ان الزام ان يعرف نفسه قد كتب عليه بسبب حقيقة بسيطة الا وهي كونه انساناً كائناً ، ووجود الانسان هو « امكانية الذات ان توجد او لا توجد » .

ويريد هيدجر ان يبرهن صحة القضية «الوجود والمعرفة شيء واحد» . والواقعة الأولى للحياة الانسانية انها وجود في العالم Beling - in - the - Wrld ان الانسان ليس ذاتاً محاطة باشياء ، يجب الا يبدأ تحليلي بالانسان ، ولكن بذاتي ، ابدأ بالعالم الذي انا فيه ، على انه دائرة اهتماماتي ، والمسرح الذي العب عليه دوري ومصالحي . ان العالم الذي اوجد فيه هو عالمي حيث ان مركزه الممكن هو ذاتي .. ان كل شيء ينتظم حولي ويرتبط بي ، اي يرتبط باغراض وليس فحسب بمعرفتي .. فمنذ لحظة بينما كنت مشغولا بالكتابة على الآلة الكاتبة فان الخطوات التي على السلم والقطار الذي يقترب من المحطة لم يكونا في عالمي . والآن ، عندما استرحت قليلا وجعلت انتباهي يتجول طليقاً فقد وجدا . لهذا ليس عالمي كمية محدودة ، انه بغير نمط ومضمونه يتبدل من لحظة لأخرى .

ولكني دائماً موجود فيه .

واني لأدرك أيضاً وجود اشخاص آخرين موجودين في العالم .. انا في العالم يعني ايضاً اني «مع» آخرين... ان وجود الذوات الأخرى شيء اولى تماماً كادراكي لذاتي . . اني ادرك وجود ذاتي داخل علاقة مع الآخرين ، اذن الوجود –في– العالم يعني الوجود –مع– الآخرين being -with - others وهناك حس مشترك Comnon Sense من ان كل فرد يعمل مع آخرين ، والذاتية على هذا مفصولة بهوة من الاستحكامية اللاشخصية (حيث ان الآخرين يحوطونها) ومن ثم اطلق هيدجر كلمته في كتابه « الوجود والزمان » : «كل انسان هو الآخر ولا يوجد فرد هو نفسه.»

* * *

ولنعد الآن الى القلق .. ان هذا القلق هو الظاهرة السيكولوجية الفريدة التي تكشف لي ما يكون حياتنا .. ان هذا القلق يطبع حياتي بطابع الهم Care (بالمانية Lorge) ، وهو الذي يجعلنا ننظر لحياتنا نظرة دينامية ، فنكون مهمومين بوجودنا ، وهذا الهم يرتبط بثلاثة اشياء : اولا : هو مرتبط بالذات وبامكانياتها ، حيث ان الانسان هو الكائن الوحيد المهموم دائماً بالغد .. انه سلسلة من المشاريع المجنحة نحو المستقبل .. ان اوجه نشاطه كلها السياسة والاقتصادية والعلمية ، بل حتى الدينية ، موجهة الى المستقبل كمحاولة لتأمين هذا المستقبل .. ثانياً : الهم يشتغل على عالم منح له ولم يختره .. اننا ملقون Thrown هنا ، ويقظة الوعي هي في اننا هنا ، سابقين على انفسنا .. ثالثاً : الهم مشغول باعمال العالم في ارتباط مع الآخرين .. ومن ثم ارتباط الهم لهذا بعناصر الزمان الثلاثة : الماضي والحاضر والمستقبل .. ولما كان الانسان هو الكائن الذي يتطلع الى الأمام قبل ان ينظر الى الخلف نجد ان عنصر الزمان الأساسي في الهم هو المستقبل .. والانسان اذ يكتب التاريخ في لحظة الحالية فانما ليسيطر على المستقبل ، ان الانسان موجود بالقوة Poteantiality اكثر من كونه بالفعل Actuality ، بمعنى آخر على الانسان ان يتساءل : ما الذي عليه ان يصبح ؟

* * *

وان الانسان الذي يسقط في المجموع وفي العالم ، ليس هو الانسان ، ولكنه هو ما اختير له ان يكونه ، وهو يعرف انه يمكن ان يستمر هكذا او ان يصبح شيئاً آخر ، وان امكانية الوجود الحقيقي (او الشرعي) authentic existence مفتوحة بالنسبة له وهو يعرف هذا دون ما كشف من الله ، والموت هو الذي يكشف لي وجودي الشرعي .. ان الموت هو الميزة الرئيسية للحياة ، فعندما يولد الطفل فان الشيء الوحيد الذي يمكن ان نؤكده عنه هو انه سيموت ، وليس الموت موضوعاً نهتم به عادة لأنه يمكن ان يحدث في اية لحظة ونحاول ان نقنع انفسنا بان الموت يقع للآخرين . والنظرة الحقيقية للموت هي ان نواجهه على انه متضمن في الحياة ، ليس الموت هو الفأس التي تقطع الشجرة ؛ انه الثمرة التي تنمو عليها .

والموت يعزلني ويجعلني فرداً ، بل انه ليذهب بي الى اقصى ابعاد الذاتية . لماذا ؟ لأنه موتي انا لا موت فرد آخر ، وكل منا يموت موته الخاص ، وهو يضطرني ان انفصل عن كل ما يربطني بالعالم والآخرين ، وهذا الموت لا يتكرر ، انني اموت مرة واحدة فحسب ، وهو مؤكد وغير محدد ، بمعنى انه يحدث لي ، اما «متى» فليس هذا محدداً ، انه يحيط وجودي ولكني لا ادري كيف . وما هو ضروري هو ان نرى ان حياتنا انما هي وجود–نحو–الموت being - towards - death ، والشخص الذي يرتمي موته هكذا يجد نفسه مختلفاً عن الجمهرة ومعداً لتحمل المسئولية ، اننا ننبثق من الجمهرة لنصبح انفسنا في النهاية ، هناك شيء في الانسان يقاوم حالته المضاعة ويستدعي امكانية اخرى ، انه الضمير Conscience الذي ينادي الفرد من الجمهرة ان يتحدث مع نفسه كذات فردة ، وان نداءه اليه يأتي في صمت ، وهذا النداء يأتي بالرغم مني ، انه يأتي من داخلي ولكن بالرغم مني ، والضمير ليس ملكة منفصلة عن الانسان ، انه صوت الهم ، انه تعبير الهم الذي يتطلب الوجود الشرعي ، انه يجعلنا مدركين للخطيئة .. خطيئة الوجود الذي جئناه مرغمين ، اننا احرار ، ولكننا لم نختر ان نكون احراراً ، واننا لنعيش في مشاريعنا projets ، وان تحقيق احداها ليتضمن في نفس الوقت رفض امكانيات اخرى ، ومن ثم نجد ان الوجود مغلف بالعدم .

ويجب علي ان اقاوم الموت الذي يتطلبني في كل لحظة ، واعلو عليه بفعلي وفعاليتي .

الانسان وحريتـــه

لعلنا بسارتر Sartre (ولد عام ١٩٠٥) نجد للفلسفة الوجودية طابعاً جديداً حياً ، مرتبطاً بالوجود ارتباطاً وثيقاً ، فان سارتر يهتم بمشكلة الانسان –في– الموقف Man - in - Situation انه يهتم بالوعي وموضوعه في علاقتهما التي لا تنفصل كما يقول جانسون (١) وكما اكد اكثر هوسرل من قبل ، ان القصدية Intentionality هي الميزة الرئيسية للادراك ، وهذا سيفضي بنا الى التمييز بين الشيء في ذاته i.self و شيء لذاته For - itself

ان سارتر لا يعرف شيئاً وراء هذا العالم ، وهو لا يرد الادراك الى ... فوق الظاهرة epiphenomenon .. ان الشيء في ذاته عند سارتر بسيط بساطة هناك ، صلد ، كثيف ، وهو ليس موضع تساؤل .. اننا ندركه على انه منفصل عن انفسنا وهو ليس فعالا او منفعلا ، وليس موجباً او سالباً .. انه وراء كل تصوراتنا Categories انه يكون ، وانه لا يوجد لذاته حيث انه متطابق مع نفسه ، ويمكننا ان نقول عنه انه ممكن Contingent وعارض acciolental وانه هناك there .

فماذا عن الشيء لذاته ؟ ان الادراك لا بد ان يرتد الى الشيء ليس هو ، وهو دائم التساؤل ، والتساؤل يقتضي اجابتين : اثباتاً ونفياً ، فبالنسبة للمتسائل . فان مالا يوجد ممكن تماماً مثل ما يوجد . فاذا كانت الصيغة Formula الأولى للوجود « الوجود ، وجود » فان الصيغة الثانية هي « الوجود هذا ، وليس هناك من شيء وراء هذا » (الوجود والعدم ص ٤٠) وهكذا نجد « ان كوننا قادرين على قول : لا ، يتطلب كشرطها الضروري ان اللاوجود Non -being يجب ان يكون حاضراً دائماً داخلنا ووراءنا » (المصدر نفسه ص ٤٦)

ان العدم لا يخص الوجود ، ولكنه لا يمكن ان يكون منفصلا عنه .. ومن ثم نجد ان الوجود الصلب المتماسك قد تمزق ، لقد ظهر ثقب ، وان المصدر الوحيد لهذا التحطيم هو الوعي ، فالوعي لا يوجد فحسب ولكنه يميز نفسه عن الشيء في ذاته ، انه خالق التمييزات والتصورات .

وقد يخيل الادراك العدم داخله « الانسان هو الكائن الذي يظهر العدم الى العالم من خلاله » (المصدر السابق ص ٦٠) والادراك لا يتطابق مع نفسه ،

---

(١) يعتبر جانسون Jeanson من كبار التلامذة السارتريين ، وقد اعتمد الدكتور « آلن » في هذا الفصل على كتابه : Le problème Moral et la pensée de sartre

– التتمة على الصفحة ٦٩ –

وجودية من الداخل

– تتمة المنشور على الصفحة ٣٣ –

فاذا حدث وتأملت فان النفس المتأملة غير النفس المتأملة ، فاذا حاولت ان اقرر ما انا ، فاني افشل لأني اثناء تكلمي ، ما اتكلم عنه اجد انه قد انزلق الى الماضي ويصبح ما صرت اليه . انني ماض ومستقبل ومع ذلك فلست انا ، لقد كنت الأول ، وسأصبح الثاني ، فالادراك اذن ليس ما هو عليه ولكن ما ليس هو وما سيكونه

اذن الادراك ليس شيئاً جامداً كاملا ممتلئاً معطى ، انه عملية process وخلق للذات Self - creation والانسان عنده ميزة تخطي الذات Self - transcendence وهو يعيش بمشاريعه projects وتخطيطاته للسلوك في المستقبل ، فالانسان دائماً ما يرسل افكاره قدامه ، اذن الانسان حر ، او بمعنى آخر الانسان هو الحرية ، ومن ثم فالحرية هي الجوهر في الانسان ، او ان الانسان وجوده يسبق ماهيته ، وبالنسبة لسارتر لايوجد أي اله او طبيعة انسانية محددة من قبل . وبهذا جعل سارتر الانسان خالق القيم Values كما لو كان هو حرية مطلقة مثل الله. ان الحرية لم يمنحها احد للانسان ، ولكنه يجد نفسه حائزاً عليها ، وليس هناك من معنى ان نقول : « يجب » ان نكون احراراً ، لأننا لا يمكن الا ان نكون احراراً ، وقد قال ان الانسان في استطاعته ان ينتحر ، ولكن كيف يؤكد الانسان حريته في الانتحار ؟ لقد صاح سارتر « لقد حكم علينا بالحرية » (الوجودية فلسفة انسانية – ص ٣٤ من الترجمة الانجليزية)

والانسان في حريته خلاق ، وهو الابداع Creativity الوحيد هناك ، ان العالم خارجه العالم الصلد ، عالم الشيء في ذاته ، لا يملك اي معنى او قيمة ، وبالانسان يتميز الخير والشر ، ومن ثم كان التميز انسانياً متعلقاً به .. واننا في اختيارنا نصنع انفسنا ، يقول سارتر في (الوجودية فلسفة انسانية ص ٣٤) « ليس وراءنا ولا امامنا في عالم مضيء بالقيم ، اي وسيلة للتبرير والاعتذار .لقد تركنا لأنفسنا دونما عذر . » ولقد اطلقت مارجوري كرين Marjorie Grene على هذه الحرية اسم « الحرية المرعبة» في كتابها الذي يحمل هذه التسمية .

ان سارتر ليذكر في « الوجود والعدم » ص٧٧ « انني ابزغ وحيداً ، وفي القلق ، في مواجهة المشروع الفريد والبدئي ، اكون وجودي . وان كل التعريفات والرسوم تنهدم وتستحيل الى عدم من وعي حريتي . انا لا املك ولا أستطيع ان املك اي قيمة تعتصم من كوني انا الذي يذكر القيم في الوجود . ولا شيء يستطيع ان يضمنني ضد نفسي »

* * *

لقد تناولنا الحرية بصفة عامة ، وسوف نتناولها من ثلاث نقاط : في الفرد كمركز للحرية ، كعلاقة بين الأفراد ، كعلاقة بالموقف المشخص Concrete الذي تمارس فيه الحرية .

ان الانسان لا يتقدم وفقاً لنموذج ، ولكنه يحمل النموذج في داخل فعاليته ، انني حرية معينة . وانت حرية اخرى ، وكل منا مركز لمعنى لهذا العالم ومرجع ، والموت لا يمكن ان يوجد من غيرنا ، انه يأتي الحياة معنا ومن جلنا ، وان تفردنا Uniqueness قائم في ان كلا منا يفعل هذا الشيء بطريقته الخاصة ، بل ان كلا منا اليدخل المستقبل بطريقته الخاصة ، فبالنسبة لسارتر ، كما هو الحال عند هيدجر ، الانسان هو الكائن الذي يتحرك امام نفسه ، فهو يلتقي بالمستقبل ويواجه امكانياته ويتخذ وجهة نظر ، ومن ثم فالحرية لا تقبل الراحة ، لأن الانسان لا يقنع بأي شيء ولا يعتقد في التحقيق الكامل ، انه اشبه بسيزيف (البطل الذي عذبته الآلهة لأنه حمل النار للانسان متحدياً في هذا ارادة الآلهة) يدحرج حجرة الى اعلى الجبل ولا يصل ابداً الى القمة ، والانسان لا ينقطع عن ان يكون حراً ، مهما حاول التخلص من حريته .

والانسان في حياته يحاول ان يحقق المستحيل ، انه يريد ان يأكل كعكعته ، وان يمتلكها معاً ، وان يربط بين وجوده ووجود العالم ، وهو يتوق ان يصبح الهاً ، لأن الله هو الوحيد الذي تلتقي فيه الماهية والوجود ، فترتبط الحرية المطلقة بالضرورة المطلقة ، ولما كان هذا غير ممكن الحدوث فانه ليس موجوداً ، لا يمكن ان توجد وحدة بين الشيء في ذاته والشيء لذاته ، لأن الشيء لذاته تخط ابدي .

يقول سارتر في كتابه عن « بودلير » : « ان رغبته الكبرى هي ان يكون الحجر والتمثال ، متمتعاً بالراحة السلامية التي تمت الى اللامتغير Unchangeable ولكنه يريد خاصة اللانفوذ هذه اضافة Impenetrability ، هذا الالتحام الكلي للذات بالذات ان تمنح في وعيه الحر الى المدى الذي هو فيه حر ومدرك ».

وهذا التحليل للنفس مخالف للتحليل الفرويدي ، الذي يلقي اللوم على الظروف ، ويقول بأن الانسان ضحية ظروفه ، ومن ثم نلقى الاثم والمسئولية على العقدة النفسية ، او على شيء ليس نفسنا ، اننا جبناء ، لا لأننا فعلنا شيئاً ، ولكن لأن الظروف حكمت علينا بهذا ، وسارتر يرفض مثل هذه الآلية للنفس ، هذه العقدة وما شابه ذلك ، فان الجبان يمكن الا يكون جباناً .

* * *

من الجميل ان يعرف الانسان انه مثال للحرية ، ولكني ادرك ايضاً اني في العالم مع آخرين ، وان وجودهم لا يشتق مني ، انه معطى بجانبه ، وهو معطى قبل كل شيء في تجربة كونه يرى being observed منظور اليه ، .. ها أنذا ارى رجلا امامي على المقعد في الحديقة يقرأ ، انه ليس اكثر – من جهة اهتمامي – من حوض الزهور ، وفجأة يرفع رأسه وينظر الي .. وفي الحال ، فان تقييمي Valuation له يتغير ، فلم اعد اعتبره شيئاً ، ولكن على انه ذات ، وادرك انني موضوع بالنسبة له ، فالشخص الآخر تهديد لي ، انه عامل مهدم في عالمي الذي يسكن فيه شخص آخر ، لقد اصبح عالمي عالمه ، لقد نزع عني اعتباري من الآخر ، وهذا ما يحدث ان كنت أنظر من ثقب باب ورآني احدهم ، وسرعان ما يتولاني الخجل ، والخجل يصاحبه حالة العري Nekedness من كوني معرض لحملقة شخص آخر وحكمه : فالآخر عدوى ، لكونه شخصاً آخر خلافي ، وصورته دائماً ما تلاحقني ، وعلى ان اواجه الصورة التي يرسمها لي ، فاذا استجبت وتصرفت

وفقاً للصورة التي في ذهنه عني ، فان وجودي يكون وجوداً غير شرعي inauthentic existence فاذا حاول هذا الآخر ان يسلبني حريتي ، ويردني الى مجرد شيء فلما ذا لا ادافع عن نفسي ؟ والصراع سيكون بيننا ابدياً ولكن الا يمكن ان يتوقف ؟ نعم .. عندما يوجد شخص ثالث ، في ملاحظة لنا ، فيمكننا ان نكون رأياً مشتركاً ضده ، وهذا هو الأصل في الوعي الطبقي Class - Consciousness ومن ثم فالبروليتاري يتحد مع غيره لمهاجمة البرجوازيين ولهذا يقول فرويد : لكي تستطيع ان تجعل الناس متحدين ، اعطهم سبباً عاماً للكراهية ، وهذا هو أساس المجتمع المغلق ، ومن ثم اطلق سارتر قوله : « الجحيم .. هو الآخرون »

ا ولكن اما لنا من عاصم ؟ نعم .. انه الحب ، لأنني في الحب اسعى الى لا رتباط ومشاركة الآخر ، لا لكي ارده الى موضوع ، ولكن باكتساب قبوله ان يكون محبوبي ، وانا اطلبه على ان يكون ملكي دائماً ، وان يكون مرتبطاً بي حتى انه لا يستطيع ان يصبح حراً ثانية ضدي ، ولكن هذاسيؤدي ثانية الى الخيبة ، لأنني اسرق حريته ، فاذا تركته لحريته فاين هو ضماني ؟ ومن ثم فان الحب هو المجهود لمشاركة آخر في حريته ، ولكن الحرية – في طبيعتها شيء – لا يقبل المشاركة .

* * *

ذكر نا ان الحرية عندما تزاول فانما تزاول داخل مجال ، داخل موقف ، فانا مثلا رجل مصري ، موظف ، متزوج ولي ولدان ، وفي القرن العشرين بكل خوفه من حرب ثالثة وباقتصاد مزعزع ، ولكن ليس معنى هذا ان حريتي محدودة بهذه الأحوال ، فان حريتي ليست شيئاً يوجد اولا وقبل كل شيء في الفراغ ، ان حريتي توجد فحسب داخل موقف ، انها الاستخدام في كل لحظة لموقف من مواقفي . وانني لم اسبب الموقف ولكني انا الذي اواجهه ومن ثم « فانني احمل على كتفي ثقل العالم كله ، دون ما شخص او شيء كائن في موقف ليخفف الثقل » (الوجود والعدم ص ٦٣٩) وانا لا ارضى ان يقين حريتي احد .. ومن ثم فانني سأقاوم كل تهديد يقع على حريتي ، ان علي ان اختار ، وان الاختيار لا يسبق حريتي ، انه عين حريتي ، انني مهجور في العالم ، وعلي ان اعطي لحياتي معنى واحمل مسئوليتي على عاتقي .

ذلك هو تحليل الحرية عند سارتر في كتابه « الوجود والعدم » وقد اخذت سيمون دى بوفوار تلميذته وزميلته على عاتقها ان تطبع هذا الكتاب بطابع اخلاقي ، ولا يستطيع احد ان ينكر حساسيتها في مناقشتها للعلاقة بين الغايات والوسائل ، ولتغليبها الأخلاقي على السياسة . ان الانسان وحيد في عالم فارغ محاط بعبث الوجود منذ بدء ميلاده ، ولكنه لا يستطيع ان يملأ وجوده معنى وهذا هو واجبه ، وتقول سيمون بانه لمجرد ان وجودنا هنا عبث وخاو من المعنى ، فاننا نستطيع ويجب ان نمنحه معنى ، لأنه اذا كان له معنى من قبل ، فلماذا نتعب انفسنا بمحاولة عطائه معنى ؟ او من ثم تقول بان الوجودية ليست مذهباً لليأس ، انها رسالة أمل ، فبالنسبة لها ليس الانسان خيراً بطبعه او شريراً بطبعه ، انه حر ، وهو يصبح خيراً او شراً وفقاً لتقبله لحريته او ابكاره لها. تقول في كتابها «الوجودية وحكمة الشعوب» L'existentialisme et la sagesse des Nations « ان انفصال الوعي حتمية ميتافزيقية ولكن الانسان يستطيع ان يرتفع عليها ، انه يستطيع ان يتحد مع اناس آخرين في العالم . والوجوديون يعيدون البعد كله عن انكار الحب والصداقة والاخوة ، لأنه بالنسبة لهم ، خلال هذه العلاقات الانسانية فحسب يستطيع كل فرد ان يجد اساساً لوجوده وتحققاً له fulfilment ولكنهم لا يعتبرون هذه العواطف معطاة مسبقاً . انها تكتسب .. ان الانسان وحيد وسيد متسلط على مصيره اذ ما اراد فحسب ان يكون مايحب . هذا هو ما تؤكده الوجودية وهذا بالتأكيد تفاؤل » (ص ٤١)

ان الانسان حر ، وليس امامه الا طريقان : اما ان يستخدم الحرية ضد حريته ، او ان يستخدمها من اجل حريته .. والذي سيحدد الاختيار مقدار تجسمه لادراك الموقف وتحمل المسئولية . « ان الوجودية هي اخلاق التكامل integrity حيث الهروب فيها من ذات المرء شر ، ومواجهة ذات المرء خير » (مارجوري جرين – الحرية المرعبة) وهذه الحرية تستحيل في العمل الى عملية تحرر liberty

العقل والتاريخ والايمـــان

يهدف « ياسبرز » Yaspers (ولد عام ١٨٨٣) الى تجديد التراث الفلسفي الغربي ، بان يدخل فيه بصائر كيركجورد ونيتشه .. ولئن كان يرفض نتائج فلسفتهما ، الا انه يدين بمنهجيهما ، فهما يثيران المشاكل التي يجب ان نواجهها .. واهم ما فيها هو انفعالها بالاخلاص ، وعودتهما الى منابع الفلسفة ، وربطها بين الفكر والحياة (يذكر يا سبرز هذا في كتابه : (أهمية نيتشة وماركس وكيركجورد) . وسوف ابحث في موضوعات اربعة من فلسفة يا سبرز الا وهي: تفسيره للعقل – نظرته للتاريخ ومعناه – لاهوته الطبيعي ان اطلقنا هذا على افكاره عن وجود الله – نظرته للمسيحية (١) .

* * *

(١) لن نلخص هنا عرض المؤلف لنظرة ياسبرز في المسيحية لأنه موضوع خاص يحتاج الى اطالة ليس هنا مجالها .

تصدر هذا الشهر

قناديل اشبيلية

بقلم الدكتور عبد السلام العجيلي

مجموعة قصصية

منشورات دار الآداب : بيروت

اذا نحن حاولنا ان نتهم ياسبرز باللاعقلانية irrationalism فاننا نكون بهذا لم نحاول ان نبذل جهداً لتفهمه .. لقد اهتم بالعلم وبالطب ، والتحق بكلية الطب في هيدلبرج ،ومنها انتقل إلى الفلسفة، ولقد بحث فلسفة الوجود ، ولم يبحثها على انها نموذج جديد للتفكير ، ولكن كأمل في تجديد الفلسفة القديمة عن طريق العقل ، فهو يعتبر العقل التوقان للفلسفة الحقة .

اننا لنعلم اننا في عصر ليس به ضمان اوطمأنينة ، وانا لنبحث عن معرفة كاملة تأوينا وتدفئنا .. وهناك في العلم نجد معرفة شاملة ، كما هو الحال في الماركسية في تفسيرها للمجتمع ، وفي التحليل النفسي الفرويدي لتفسير الفرد ، وعظمة العلم هذه تدفعنا الى ان نبحث عما هو العلم ، وعما ليس هو .. وان الانسان ليجد في نفسه شعوراً بأن هناك شيئاً يتفلت من العلم ، وانه لا ينضوي تحت نطاقه ، ويجد ان العلم لا يقنعه وهو يريد ان يتجاوز ، انني لاكتشف ان وجودي هو ما سيجيء ، وما هو منفتح لحريتي ، ما يكتسب او ما يفقد ، انها الذات لا كشيء معطى ، ولكن كشيء يزاول، وهي لا يمكن ان تكون موضوع معرفة لانها دائماً على صعيد الذاتية ، واني متضمن بها في العالم ومع الذوات الأخرى ، وانا حر في تكوين مصيري .

ونستطيع الآن ان نقترب من العلاقة بين الوجود والعقل .. الأول يدخل جمال السر في الايمان والأمل والشجاعة ، والآخر يتعقل ما اكتسب .. الاول يعطي الحياة مضموناً والآخر يعطي لهذا المضمون شكلا .. وهما ليسا ملكين منفصلين ، انما هما مظهران لفعالية واحدة ، تنشغل فيها الذات كلية .. فمثلا ، الرحالة يكتشف كل جزر في رحلة ويسجل هذا على خريطة ، فمن غير المخاطرة ما كانت لترسم الخريطة ، ومن غير الخريطة ما كان لنا ان نستفيد من هذه المخاطرة .

والفلسفة هي وحدة الوجود والعقل .. وحدة المضمون والشكل معاً. الوجود مخاطرة الحرية ، وهو الذي يجعل الفلسفة ممكنة وانها مختلفة عن العلم .. والعقل يستخدم ما يقدمه الوجود من انه يخلق فلسفة لا تخجل امام العلم .

والعقل يمتاز بانه انفتاح openness متقبل لكل الحقيقة ، من اي مصدر تأتي منه .. وليست لديه مسبقات ، كما انه اتضاح clarity يضوء ما يدخل في انفتاحه ، وهو ارادة الوحدة ، فلا يتمتع بسلسلة من البصائر الواحدة تلو الأخرى .. يقول ياسبرز « لكي يكون الباحث قادراً على البحث عن « الواحد » يجب عليه ان يصبح هو نفسه الواحد » ..

ويمتاز العقل ايضاً بانه يستخدم المناهج وتصورات الذهن لكي يتخطاها ، وهو في اتصال مستمر حيث انه لايقنع بتجربة خاصة واحدة ، ولكن عليه ان يشارك مع اخرى ويتعلم منها .

غير ان العقل امكانية اكثر منه فعالية « ليس العقل هناك بالطبيعة ، ولكنه يكون حقيقياً خلال قرار (في كتابه Vernunft und Widerv Ernunft P. 41)

وهكذا يتبين لنا ياسبرز وقد ابقى على الموضوعية ، ولم يلغها الغاء وانما ادخلها بوثقة الذاتية .

* * *

ويعتبر ياسبرز مع برديائيف Berdyaev الوجوديين الوحيدين اللذين عنيا بمشكلة التاريخ ومعناه ، بالرغم من ان هيدجر له فصل في كتابه « الوجود والزمان » .. ونحن لا يمكن ان نجد لهذه المشكلة اثراً عند سارتر حيث انه لا يجد ادنى اهتمام بالماضي وبتفهم التراث .

وعندما نقارن بين ماكتبه ياسبرز عن التاريخ بماكتبه اشبنجلر pengler وتوينبي Toynbee نجد ان الحرية تلعب دوراً اكبر عنده عنهما ، وهو على حق عندما يفض وجود نقطة خارج التاريخ ننشغل بها عندما نبحثه ، اننا مشاركون في التاريخ لا مجرد متفرجين ، وليس التاريخ بالنسبة لنا مجرد احداث ماضية ، ان التاريخ مفتوح ، حيث علينا ان نصنع المستقبل والتاريخ لا يمكن ان ينفصل عن النظرة الكلية للحياة عند الشخص الذي يبحث ، بمعنى آخر ان فلسفة التاريخ – مثل اي نمط آخر للفلسفة– قائمة في العقيدة الشخصية

وفي عصرنا الحديث نتبين امرين : الأول اننا نعيش لأول مرة في العالم، والثاني ان الحياة الروحية في خطر مقبر لها ، لأن الانسان نفسه اصبح عملية تآلى Mechanized .. اليوم ، المجموع هو الفاعل المحدد في الحياة منظمة .. اننا نعيش وسط السلوب Negations بان نكون ضد هذا وضد هذا .. لقد اصبحنا ضحايا العدمية وعدم الثقة.. ولكن ليس هذا هو مصيرنا ، لأننا اذا تفهمنا كل هذا اخضعناه لسيطرتنا .. ان لنا املا ان نحاربه بلا خلاف .. ان الانسان المعاصر يبحث عن الحرية مقدراً اياها على انها تحرر liberation الذات الباطنية ، وعلى انها قاعدة القانون في المجتمع المنظم ، ولكن الحرية علينا ان نكتسبها ونذكرها مع الاشتراكية ووحدة العالم والايمان الذي يواجه العدم .. اننا في حاجة الى ميلاد جديد لدين الانجيل بطريقة متلائمة مع عصرنا وحاجاتنا .. والايمان بالله هو الذي سيجعل الناس مقتنعين انهم ليسوا في مواجهة الظروف وحدهم . وان هناك قوة تساعد مسعاهم الشريف وتعطيه معنى .

يجب الا ننسى ان وراء الفكر والعقل الايمان بان الانسان خلق على صورة الله ، وانه ليس بلا غاية على هذه الأرض .

ان التاريخ معناه الولوج الى كل لحظة كما تعاش الحرية ، مع الله ومع البشر ومعناه الحرية ايضاً، انه المجال الذي يكشف فيه الانسان عن نفسه في امكانياته بالنسبة للخير والشر ، وهو المجال ايضاً الذي يكشف الله فيه نفسه وفي استجابتنا له .

* * *

ان الايمان عند ياسبرز ذو طابع فلسفي لا ديني .. والفرق في هذا ان الايمان الفلسفي فردي دون ما سلطة ، ودون ضمان .. بينما الآخر ربط الحياة العامة بالكنيسة ، وقائم على كشف يعطي تاكيداً.. الفيلسوف يجب ان يكسب ايمانه بصراع ذاتي مع المشاكل الكبرى في الحياة ، على الا يخرج عن نطاق العقل .. وعليه ان يعيش في استقلال .

وليس هناك من انسان يصبح تجسد الله ما لم يكن هذا في موقف تاريخي ان الايمان يرتبط بالوجود existence ، اي انه وجهة نظر للذات لما تتخطى اليه ، وكذلك العالم ، انه نظرة تبحث عن الاتصال .. وهذا الايمان جوهره الله ، او ذلك المطلق ، او ذلك الكمال الذي نسعى اليه .

من السر إلى الاخلاص

سيصطدم اولئك الاكاديميون عندما يدرسون مارسل Marcel (ولد ١٨٨٩) لهذه الطريقة الإحساسية التي يصل بها الى نتائجه .. فهو دائم المراجعة لما يثبته ، ونجده مثلا في« يوميات الميتافيزيقية »Journal Métaphysique يقول : « يجب ان ابحث هذا بعمق اكثر » او « لا استطيع ان اجد منفذاً الآن ابعد » او « كيف يتطابق هذا مع ماكتبته الشهر المنصرم ؟ انا لا ادري » . ويقول في كتابه « سر الوجود » The Mystery of Being « بين البحث الفلسفي ونتيجته النهائية ، توجد حلقة لا يمكن تحطيمها دون ان يفقد التلخيص نفسه كل حقيقته مباشرة » . ان الامر بالنسبة لجابريل مارسيل ، كما هو الحال عند افلاطون ، هو ان النتيجة لاقيمة لها من غير العملية process

التي ادت الى هذه النتيجة . وعند مارسل وافلاطون الفلسفة تنمو من الحياة ، ومن ثم فهناك صفة الكشف الذاتي عن هذه الحياة كما نجد عند كيركجورد .

وهناك اوتزار بين تجربة مارسل الخاصة وبين فلسفته، وكما ان المؤلف يكشف عن الرجل ، فكذلك الرجل يكشف عن المؤلف .. انه يهتم بالمسرح ولقد كتب في كتابه « فلسفة الوجود » : « منذ سنوات حياتي الأولى وقد تقمصني المسرح الذي جذب انتباهي اقل بالمنظر منه بميزة التعبير » ، « لقد فكرت دائماً ان الشخصيات الخيالية التي اعقد بينها حديثاً صامتاً تحل محل الأخوة والأخوات الذين افتقدهم بقسوة في حياتي الحقيقية . »

ولقد اثرت في حياته الحرب العالمية الأولى ، فلقد كان غير لائق للخدمة العسكرية ولكنه قام بالواجب في الصليب الأحمر ، في مكتب المفقودين ، وكان يوصل الأخبار لأسر المتوفين ، فأطلعه هذا على مكنون الحب ، وكان هذا نواة بحثه في مشكلة الغياب ، وجعله يفرق بين السر والمشكلة .

* * *

ان المشكلة problem شيء « ملقى هناك » out there ، يمكن ان توجه له نظرك ، انها سؤال ينبعث وفقاً لظروف خاصة ، ونأمل ان نجد له حلا .. ونحن نلجأ عادة الى التحليل ، فنجزئ المشكلة الى اجزائها حتى نستطيع ان نتناولها بسهولة فنرتد الى اشياء نعرفها من قبل ، وندخلها تحت مقولات categories اكثر شيوعة . ومن ثم نجد ان المشكلة قد توقعت هكذا ، وانها انحلت هكذا ، ونذهب الى مشكلة اخرى ، وان الذي سيتناول المشكلة سيجد حلنا جاهزاً ready - Made .

ولكن ليس كل مشكلة سهلة ، فهناك من المشاكل ما لا نستطيع ان نفصله عن انفسنا .. اننا متضمنون فيها ، انها جزء من حياتنا ولأن نجزئها هو ان نقضي عليها ، واننا لا نحل شيئاً بهذا .. اننا الآن في مجال السر Mystery الذي يقوم وراء المشكلات ، وانا لا استطيع ان ادرس السر واشرحه .. وهو سوف يصحبني حتى انتهاء حياتي .. ولكن مواجهتي له ليست عبثاً، لأني وانا اواجه السر بالأمل والشجاعة – اجد اني انمو الى ذات اخصب . ان السر ينبع من تجربتنا ، ونحن مضطرون ان ننظر فيه عن طريق الفعل action لا بالتأمل ، ولأن ننقل السر الى صعيد المشكلة هو ان نزيفه .

ولكن ليست المشكلة والسر مقولتين مختلفتين ، ان التجارب ترتبط من جهة بالمشاكل ومن جهة اخرى بالأسرار فمثلا : انا مريض وارسلت في طلب الطبيب ، ولقد فحصني ، واستمع الى شكواي ووصف لي العلاج وكان علي ان امكث شهراً في سريري . ان نظرته للمرض هي نظرة علمية : انها مشكلة تتطلب حلا ، وهو يذهب الى المريض التالي والى مشكلة اخرى بنفس الطريقة . ولكن عندما ينغلق الباب وراء الطبيب ، فاني ابقى منفرداً ، ويتخذ المرض لوناً مختلفاً ، فعلي ان اعيش معه شهراً وهذا موقف اخلاقي على ان اتصرف فيه كفرد مسئول . فهل سأكون مكتئباً ؟ ام ان اضيء بكل وسيلة جوانب حياتي من اجل هؤلاء الذين ينتظرونني طيلة هذا الشهر ؟ فهنا اذن حركة داخل التجربة ، وعلينا ان ننقل الأمر الى صعيد نشارك فيه لا ان نبحثه ، فلا بد من عملية تخطي في التجربة ، وهذا التخطي ليس شيئاً يقع وراء beyond التجربة ، انه اعماق التجربة نفسها .

واذا طبقنا الأمر على العلاقة بين جسمي وذاتي ، اجد ان العلم يدرس جسمي على أنه « الجسم » وليس « جسلي » أنا .. ولكن لي علاقة فريدة unique بجسمي ، وان علاقتي به هي نوع من المشاركة تتخطى كل التميزات التي يمكن ان نستخدمها بين ما هو خارجي external وبين ما هو داخلي internal بين الفعالية والانفعالية .

ان التجسيد incornation يكشف لي هذا ومن ثم على الفيلسوف الا ينعزل عن الموقف التاريخي وينحدر الى مشكلات لا زمانية ، وانما يجب ان تقوم فلسفته على بطانة قوامها الحضارة والمجتمع اللذان توجد فيهما .

واذا اخذنا الحياة ، نجد انه يمكن ان تؤخذ حياتي على انها قصة ، وحوادث تقص . ليس الانسان مطلقاً اكثر صدقاً مع نفسه عما في لحظة التضحية ويشعر حينئذ انه قد عاش اخيراً حياته دون ما تصنيف ؛ ان معنى حياتنا ليس شيئاً على السطح ولكنه في الأعماق ، اننا انفسنا بأن نتخطى انفسنا .

وان معرفة المرء لذاته لها معرفته بانها في علاقات معينة متخصصة ، بالنسبة لندوات الأخرى . فمن هم الآخرون ؟ ان هناك تمييزاً بين الموضوع Object وبين الحضور presence ان معنى الحضور – كما قد يظن – هو ان اشغل حيزاً في مكان وزمان محدودين بالنسبة لشخص معين ، ولكن الحضور الحق هو ان اكون في وجدان شخص حتى ولو لم اوجد حقيقة ، ومن هذا نستطيع ان نفهم مشكلة الموت تفهما جديداً، من ان هناك اتصالا Communication مستمراً بين الأحياء والاموات .ولقد عبر عن هذا الفيلسوف الوجودي مارتن بوبر Martin Buber بحديثه عن الأنا والأنت ، والأنا والشيء اننا لنشارك الآخرين قبل ان ندرسهم ، وان الحب هو تداخل الذاتية .

ومن ميزات الحضور الاخلاصي ، ان الانسان – كما عبر نيتشة – هو المخلوق الوحيد القادر على اعطاء وعد .. انه يستطيع ان يرتبط بالمستقبل .. وهذا الاخلاص يجب ان يكون امام الله وامام الناس ، والحب هو فعل الإخلاص الخلاق ، فكل محب يعتبر محبوبه حضوراً ، ومن ثم فهو مقدس .

* * *

وها نحن نقترب من السر الرئيسي ، الا وهو سر الوجود . ان الوجود يوجد باتباع هذا المطلب الداخلي الا وهو « اقتضاء الوجود » exigence of Being ولكي نتبعه علينا ولا ان نميز بين الوجود الانساني existence والوجود العام Being . فالوجود الانساني عنده يعني المعطى البدئي primary Datum لتجربتنا .. وركيزة كل تفكيرنا التي منها ننطلق..

شعر من لبنان

الياس ابو شبكه : افاعي الفردوس ، نداء القلب، الالحان ، الى الابد .

صلاح لبكي : مواعيد .

الدكتور سليم حيدر : آفاق .

عاطف كرم : من هوانا .

خليل مطران : الطغاة .

ميشال بشير : غروب .

دار المكشوف – بيروت

واني لأعيش كذات متجسدة من موقف معين مع آخرين متجسدين ايضاً .. وليس في الامكان التمييز بين الوجود وكشف الوجود ..

وان « اقتضاء الوجود » لهو توجيه نحو القيم « هناك هوة دائمة بيني وبين وجودي ، واستطيع ان اضيق الهوة ، وهذا حق ، ولكن على الأقل في هذه الحياة لا امل ان نعبرها » . (سر الوجود – الجزء الثاني ص ٣١)

ان الوجود Being في الأشخاص ويمكن الحصول عليه في حلة الحب ، فان الشخص الثاني يصبح بالنسبة للوجود ، عندما اقترب منه في احترام ، عندما اعتبره مركز الحرية والمسئولية . ان الوجود تداخل الذاتية ، اننا نشارك الحياة مع آخر ، ومن ثم ينكشف لنا سر الوجود في هذه العلاقة من الـ « أنا » و « الأنت » .. ان الوجود لينفتح للايمان والأمل والحب ولا ينفتح للمعرفة العلمية .. ان الشخص الثاني في الحب ، ذلك المقدس ، سيقودني الى الله الذي هو موضع الاخلاص المطلق ، والشخص الثاني يصبح املي في الخلود لأنه لا يفنى ، لأن له جدارة فريدة ، بل ان موته ليس موتاً ولكنه حضور ، ومن ثم ينقاني الموت الى امل الخلود ، ومن ثم نصل الى ميتافيزيقا الأول ، لأن المحب يأمل في دوام محبوبه لأنه يشارك بالحب وجود الشخص الآخر ويأمل في ان هذه المشاركة تقهر الموت . انه كما كان يقول لمحبوبه « مهما تدخلت الأحوال فيما ارى امامي ، فستظل انت وانا دائماً كواحد : ان الحادثة التي تحدث والتي تمت الي ما هو عرضي لا يمكن ان تلغى وعد الخلود المتضمن في حبنا ، في تعهدنا انعلاقي » (ص ١٥٤)

وان مارسل ليتحدث عن هذا الأمل كـ « تأكيد تنبؤي » ، يجب ان يصبح فعلا للإخلاص الخلاق . ولأن نحيا في قلوب اولئك الذين نتركهم وراءنا هو أملنا الحق في الخلود .

لقد وصلنا اذن الى الاخلاص بعد مخاطرات لم يكن بد منها ، ولم يكن هذا الوصول محددا من البداية ، وانما وصلنا اليه بعد مخاطرات .. لكأننا منطلقون الى كعبة ، ولا ندري ان كنا سنجدها فارغة ام عامرة بحضور إلهي ، واذا كنا سنسجد امام هذا الحضور ، فلا يجب ان ننسى الطريق الذي وصلنا عن طريقه . ويجب الا ننسى اننا ذوات لا اشياء ، واننا احرار مسئولون ، واننا لسنا وحدنا ولكن مع آخرين ، وان مصيرنا هو ان نتخطى انفسنا ، وان قدرنا في ايدينا ، وما اذا كنا سنجد الله ام سنفقده في هذا فهو ما لا ندريه ولكننا نجد ان حبنا الانساني وحريتنا قائمان في حبه .

* * *

لقد حاول المؤلف الدكتور « ألن » ان يعيش مع موضوعه ، وان ينفذ الى الوجودية من الداخل ، من داخل اصحابها ومؤلفاتهم .. وكان ان اطلق على كتابه هذا الاسم الفريد ، ولكن لعله كان من الاوفق ان يربط بين انواع هذه الفلسفات الوجودية ، وان يعرض لنا الجانب الحضاري والذاتي والتاريخي لاختلاف كل فيلسوف وجودي عن الآخر ، فلا شك ان التراث الفلسفي لكل منهم ، والنشأة الخاصة المتعلقة بهم ، والظرف التاريخي الذي وجد فيه كل منهم لاشك ان كل هذه عوامل ساعدت على وجود تباين بين فلسفاتهم ، وكان احرى بالمؤلف لو انه ركز عليها الأنظار بجانب عرضه النزيه لفلسفاتهم ، واستبصاره الرائق لأسس تفكيرهم .

عرض وتحليل

مجاهد عبد المنعم مجاهد

الثريات الانيقـــــة

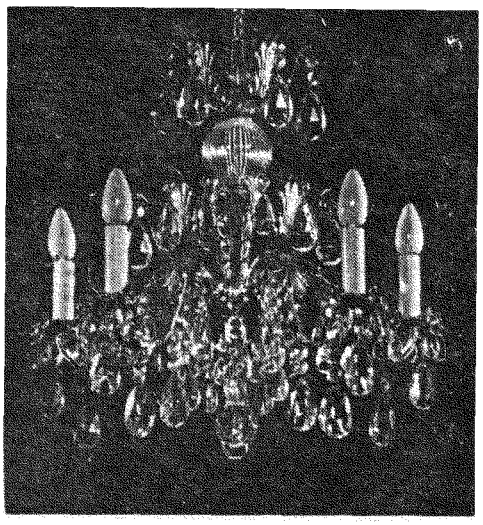

والاواني الجميلة

تجدونها في معارض

كمال وشركاه

جانب اوتيل بريستول – بيروت